

الباب الثاني شخصية أبي تمام وأسرته

١ - شخصية أبي تمام

كان أبو تمام طويل القامة، أسمر اللون، فيه تمتمة يسيرة؛ "فإذا أنشد استوى لسانه، وكان لفظه لفظ أعراب^(١)". ويصفه رجل رآه في مجلس خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني "بأنه : رجل حسن الحديث، أعجبنى جدا" ... ويقول عنه خالد : ما رأيت أحسن بيانا منه، ولا أفصح لسانا . وكان أجش الصوت شيئا، كثير الفكاهة، خفيف الروح، كما يقول هو عن نفسه؛ يدعو رجلا للشراب على مائدته معروفا بخفة الرأس، ممن تطيح بعقولهم أول كأس، فيقول له : "إن أردت أن تنام عندنا الليلة فتعال"^(٢). شديد الذكاء، لا تكاد تبدؤه الحديث حتى يفهم ما تريده، كأنما كان على علم به . قوى العقل، يقول فيه كاتب من كتّاب الحسن بن رجاء : رأيت فيه رجلا علمه وعقله فوق شعره . وكان البحتري يقول عنه لعل بن إسماعيل النوبختي : والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائي، لرأيت أكل الناس عقلا وأدبا؛ وعلمت أن أقل شيء فيه شعره^(٣)، صافي القريحة، جم الأدب غزيره، حتى ليتها له أن يقول :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ وَجِهَلْتُ كَانَ الْجَلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا طَرَبْتُ إِلَى الْمَدَامِ شَرِبْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَتَرَاهُ يُصْغِي لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ وَبِسَمْعِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

وكان سهل الخلق، رضى النفس، مرهف الحس، يحزن فيسرع إليه اليأس، ويبيكي فيذوب دموعا؛ ليس فيه شيء من ذلك الجمود عن الحياة، أو التعالي عليها، ذلك التعالي الذى تضيق به النفس . ليس من عبيد الحياة، الذين يتمرغون فى حماها ثم يدعون أنهم سادتها، ولكنه كالناس

(١) أوراق ملحقة بشرح التبريزي لديوان أبي تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش) .

(٢) الأصول : كتاب أخبار أبي تمام، صورة مخطوطة بمكتبة جامعة فؤاد الأول، الورقة ٧٩

(٣) المصدر نفسه، الورقة ٣٤

جميعاً، يعبد الحياة، ويتغنى بعبادتها، فإذا هزم لم يصخب كما يصخب تلميذه المتنبي . وإنما يستقبل الحياة بعد أن تذهب عنه سورة اليأس الأولى ، في رضى بما فيها ، وقناعة بما تنيله من عطاياها ، قل أو كثر .

فَقَنَّنِي يَا سَيِّ وَأَعْلَمْ أَنَّنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْقَادِرِ مُدْجٍ

فإذا سخر من الدهر وتصاريقه ، لم يسخر منه سخرية الغاضب الحقيق ، ولكن سخرية الضاحك الهازئ ، الذى يأخذ الحياة أخذا سهلاً هونا :

فَلَوْ ذَهَبَتْ سِنَاتُ الدَّهْرِ عَنْهُ وَأَلْقَى عَنْ مَنَاكِبِهِ الدَّنَارُ
لَعَدَلُ قِسْمَةِ الْأَيَّامِ فِينَا وَلَكِنْ دَهْرُنَا هَذَا حِمَارُ

وهو كريم جواد . يقول الصولي : حدثني محمد بن سعيد أبو بكر بن الأهم قال : حدثني أحمد بن أبي قنن ، قال : حضرت أبا تمام وقد وصل بمائتي دينار ، فدفع إلى رجل عنده منها مائة ، وقال : خذها . ثم قيل لى : إنه صديق له . واستبذت منه خلة ، فعذله على إعطائه ما أعطى ، وقلت : لو كان شقيقك ما عذرتك مع اضطراب حالك ؛ فقال :

ذُو السُّودِ مِنِّي وَذُو الْقُرْبَى بِمِثْلَةٍ وَإِخْوَتِي أَسْوَةٌ عِنْدِي وَإِخْوَانِي
عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدَابَهُمْ أَدَبِي فَهَمُ وَإِنْ فُرِّقُوا فِي الْأَرْضِ جِيرَانِي
أَرَوَّاحُنَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَغَدْتُ أَجْسَامُنَا بِشَّامٍ أَوْ خُرَّاسَانَ

والأبيات تبين عن رأيه في الصديق والصدافة .

وكان مسرفاً . يروى الصولي أن رجلاً من إخوان أبي تمام قدم عليه ، وكان قد بلغه أنه قد أفاد وأثرى ، فجاءه يستميحه ، فقال له أبو تمام : لو جمعت ما آخذ ما احتجت إلى أحد ، ولكني آخذ وأنفق ، وسأحتال لك . فكتب إلى أبي سعيد : (محمد بن يوسف الثغري) بقصيدة منها :

لَا زِلْتُ مِنْ شُكْرِي فِي حُلَةٍ لَا بُدَّهَا ذُو سَلْبٍ فَخِيرٍ
يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعَ أَسْمَاعُهُ : كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ
لِي صَاحِبٌ قَدْ كَانَ لِي مُؤْنِسَا وَمُأَلَّفَا فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ
يَحْتَلِبُ الدَّهْرَ أَفَاوِيْقَهُ وَيَخْلُطُ الْحَلُومَ مَعَ الْحَازِرِ
حَتَّى إِذَا رَوَّضِي تَغَنَّى بِهِ ذَبَابُهُ فِي مُوْنِقٍ زَاهِرِ

أَلْفَحَ بِالْعَزْمِ أَمَانِيَهُ بَعْدَ اعْتِنَاقِ الْهَمَّةِ الْعَاقِرِ
تَحْمِلُ مِنْهُ الْعَيْسُ عَجُوبَةً تَجَدَّدُ السُّخْرَى لِلْسَّاحِرِ
ذَا ثَرْوَةٍ يَطْلُبُ مِنْ سَائِلٍ وَمُفْجَأًا يَأْخُذُ مِنْ شَاعِرِ
فَصَادَفَتْ مَالِي بِالْإِقْبَالِ مَنِيَّةٌ مِنْ أَمَلِ عَائِرِ
فَشَارِكِ الْمَقْمُورَ فِيهِ وَلَا تَكُنْ شَرِيكَ الرَّجُلِ الْقَامِرِ
فَرِفْدُكَ الزَّائِرَ بَجْدٍ وَلَا كَرِفْدِكَ الزَّائِرَ لِلزَّائِرِ

ويشغف بالجمال ويتعشقه ، في الطبيعة ، وفي الطير ، حتى وكأنه يفهم حديثها :
سَاقٌ عَلَى سَاقٍ دَعَا قُمْرِيَّةً فَدَعَتْ تُقَاسِمُهُ الْهُوَى وَتَصِيدُ
يَتَسَاقِيَانِ بِرَيْقٍ هَذَا هَذِهِ تَجْمَعَا وَذَاكَ بِرَيْقٍ تِلْكَ مُعِيدُ

ويبكي لبكاء الحمايم ، فينهنه نفسه عن هذا البكاء :

لَا تَسْجِينَنَّ لَهَا فَإِنْ بَكَاهَا صَحِيحٌ وَإِنْ بَكَاهُكَ أَسْتَغْرَامُ

يستقبل حياته في غير ترمت المتدينين ، فهو ابن عصره المترف الناعم ، يسرف ، في غير اهتمام لما ستأتي به الأيام . روى الصولي ^(١) : ” نخرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد بن مزيد وإلى إرمينية ، فامتدحه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ونفقة لسفره ، وأمره ألا يقيم إن كان عازما على الخروج . فودعه ، ومضت أيام ، فركب خالد ليتصيد ، فرآه وقدامه زُكرة فيها نديد ، و غلام بيده طنبور . فقال : حبيب ؟ قال : خادمك وعبدك . قال : ما فعل المال ؟ فقال :

عَلَّمَنِي جُودُكَ السَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيْ مِنْ صِلَتِكَ

فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى ، فأخذها .

وإن في هذه القصة ، وفي هذا المزاج الشعري في انتقاء المكان تحت الشجرة ما يستحضر في الذهن أبيات عمر الخيام الشاعر الفارسي :

وَأَخْلَى بِي نَحْسُ وَشَرَابًا عَتَقَا ثُمَّ تَلَهُوْا بِنَشِيدٍ مُنْمَقَا
وَرَغِيفٌ تَحْتَ ظِلِّ أَشْرَاقَا وَأَشْدُّ بِالْأَلْحَانِ يَرْتَدُّ الْخَلَا

* جنة راق بها الحسن وراغ *

وقد يسوق هذا إلى الظن أن أبا تمام كان من أصحاب الغلمان ، ولكن هذا ما لا تدل عليه حياة أبي تمام ولا شعره ، وإن ما فيه من ذلك قريب أن يكون من باب طرق فنون شعرية طرقها معاصروه ، فعز عليه ألا يقول فيها ، فقال ؛ وكان ما قاله قليلا جدا ، فهو لا يرضى أن يتهم في غلامه ، فيدفع ذلك دفعا لا تجد إليه التهمة سبيلا . وفي الصولى :

”روى مسعود بن عيسى قال : حدثني غلام أبي تمام ، المنشد كان لشعر أبي تمام ، وكان حسن الوجه ، قال : دخل أبو تمام على الحسن بن وهب وأنا معه ، وعلى رأسه جارية ظريفة ، فأوما إليها الحسن ، يغيرها بأبي تمام ، فقالت :

يَا بَنَ أَوْسٍ أَشْبَهْتَ فِي الْفِسْقِ أَوْسَا وَأَتَخَذْتَ الْغُلَامَ الْفَاوِيسَا
فَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

أَبْرَقْتُ لِي إِذْ لَيْسَ لِي بَرْقُ فَتَرَحَّجِي مَا عِنْدَنَا عِشْقُ
مَا كُنْتُ أَفْسَقُ وَالشَّبَابُ أَحْيَى أَخْيَيْنَ شَبْتٌ يَحْوِزُ لِي الْفَسْقُ
لِي هِمَّةٌ عَنْ ذَاكَ تَرْدُعُنِي وَمَرَكَبٌ مَا خَانَهُ عِرْقُ

ولكنه وأوع بالنساء ، يتعشقهن في كل مكان نزله ، ويستفتح معظم قصائده بغزلهن . ينزل مصر فيحب ، ويخرج من الشام إلى مصر طاعة لجيرة ، ويسير إلى نراسان ، فينزل أبرشهر ، فيسمع وهو سائر صوت مغنية تغنى بالفارسية ، فيحبها ، ويتولاه في حبها ، ويلازمها ، حتى لسمع قوما يقولون إن طول ملازمته لها قد حطت قدره عند عبد الله ابن طاهر ، فكان أن غضب عليه . وهو حضري بمعنى الكلمة ، يحب اللهو ، ويغرم بعيش المدن الصاخب . وإن ممدوحه مالك ابن طوق يأخذه معه إلى باعينا ، وهي قرية على الفرات صغيرة ، ليس بها ملاحى المدن ، فيصرخ به صجرا بعيشها ، ونقص لذاثها :

يَا مَالِكَ ابْنَ الْمَالِكِينَ أَرَى الَّذِي كُنَّا نَوْمِلُ مِنْ غِيَابِكَ رَأَانَا
لَوْلَا اعْتِمَادُكَ كُنْتُ فِي مَنَدُوحَةٍ عَنْ بَرَقَعِيدٍ وَأَرْضِ بَاعَيْنَانَا
وَالْكَامُحِيَّةُ لَمْ تَكُنْ لِي مَوْطِنًا وَمَقَابِرُ اللَّذَاتِ مِنْ قَبْرَانَا
لَمْ آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جُثَّتْهَا إِلَّا حَسِبْتُ بَيْوتَهَا أَجْدَانَا
بَلَدُ الْفِلَاحَةِ لَوْ أَنَاهَا جَزُولُ أَعْنِي الْحَطِيئَةَ لِأَغْتَدَى حَرَانَا
تَصْدَادُهَا الْأَنْفَاهُ بَعْدَ صِقَالِهَا وَتَرَدُّ ذُكْرَانِ الْعُقُولِ إِنَانَا
أَرْضُ خَلَعْتُ اللَّهُوَ خَالِي خَاتَمِي فِيهَا وَطَلَقْتُ السُّرُورَ ثَلَاثَانَا



إلى جانب هذه الحياة اللاهية في غير حق، نجد أبا تمام المترفع الوقور، الذي ينثر عليه عبد الله ابن طاهر ألف دينار، فلا يمدّ يده إلى واحد منها . ووقاره هذا هو الذي كان يدفع بممدوحيه إلى احترامه، ووجهه، وإقامة ما بينه وبينهم على أساس الصداقة والصحبة؛ حتى لنجد ممدوحا له كآبن الزيات الوزير يرثيه بعد موته إبان وزارته، وكذلك الحسن بن رجاء . ولقد رأينا من قبل هذا رأيه في الصداقة، وكان أصدقاؤه يعرفون له هذا الشعور من ناحيتهم، فكانوا يحبونه حبا صادقا، نراه في فورة غضب على بن الجهم على دعبل، لما ذكر في مجلسه فلعه، فسئل عن ذلك، فقال : لقد كان يطعن على أبي تمام، ويكذب عليه . ونراه في حديث أصدقاؤه جميعا عنه بعد موته، وشأنهم عليه .



ثم هو قاس على أعدائه، شديد التقمة عليهم، ولكنه رحيم بأصدقائه، شديد الحب لهم، ويتلخص مذهبه من هؤلاء وهؤلاء في قوله :

لِيَنْبُلْ عَدُوٌّ مِنْ عَدُوِّ إِيْمَا يَغْفُو وَيَصْفَحُ صَاحِبٌ عَنْ صَاحِبٍ
يرى عمورية تحترق فيهتف :

مَا رُبُّ مَيْتَةٍ مَعْمُورًا يُطْفِئُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رَبًّا مِنْ رَبِّهَا الْخَرِبِ
وَلَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَذَا الْقَرَبِ

ويحتاج صديقه فيعطيه، وهو في حاجة إلى ما يعطى . فإذا سئل قال :

ذُو الْوُدِّ مَنِيَّ وَذُو الْقَرَبَى بِمِثْلَةٍ وَإِخْوَتِي أَسْوَةٌ عِنْدِي وَإِخْوَانِي
ويُصْلَبُ الْأَفْشِينَ ، ويحرق جسده ، فيقول :

يَا مَشْهَدَا صَدْرْتُ بِفَرْحَتِهِ إِلَى أَمْصَارِهَا الْقُصُوَى بَنُو الْأَمْصَارِ
ويموت أبنه فيقول :

كَانَ الَّذِي خِفْتُ أَنْ يَكُونَا إِنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَا
أَمْسَى الْمَرْجِيُّ أَبُو عَلِيٍّ مُوسِدًا فِي الثَّرَى دَفِينَا
حِينَ أَتَيْتُ وَاسْتَوَى شَبَابَا وَحَقَّقَ الرَّأْيَ وَالظَّنُونَا
أُصْبِتُ فِيهِ وَكَانَ عِنْدِي عَلَى الْمَصِيبَاتِ أَنَّ يُعِينَا

كنت عزيزا به كثيرا وكنت صَباً به حيناً
دافعتُ إلا المنونَ عنه والمرء لا يَدْفَعُ المنونا

الأبيات

... ..

... ..

+

وكان أبو تمام أنيقاً في ملبسه . نزل بغداد أول ما نزلها وعليه ثياب أعرابي ، فلما أن غني وأصاب دنيا ، أخذ يرتدى من الحرير :

قَصِيّاً تسترجف الريح مَتَدِيّاً به بأمرٍ من الهُبُوبِ مُطَاعٍ

ويختار الفرو الناعم ، والمركب الفاره والعبيد . يتبعه إلى البصرة في نزوله بها مرة أربعة وعشرون فتي ، ويستقبله حين يقرب منها شعراؤها وأدباؤها .

+

وهو كثير الرحلة ، لا يكاد يستقر في مكان ، كبير الخيلة مما أكسبه تنقله . يستمد استعاراته وتشبيهاته من دنيا واسعة ، كثيرة الصور ، مزدحمة بها ، حتى إن كثرتها ، وتخزيه إياها ، يزيد أسلوبه تعقداً ، ويخرجه مخرج التكلف ، يقول :

أنبطت في قلبي لرأيك مشرعاً ظلت تحسوم عليه طير رجائي

فيرسم لك في قلبه نبعا متفجرا وطيوراً حائمة عليه .

+

وهو بهذه الخيلة الضخمة المتعددة النواحي ، يحوب البلاد طويلاً وعرضاً ، من شرقها إلى مغربها ، يقول شعره بصوته الأجش المنقطع أول الأمر ، ثم يجوبها ومعه غلامه ثانية ، وهو غلام حسن الصوت ، جميل الخلقة ، يقول شعره عنه في حضرة ممدوحه . وهم يستقبلون وفادته بالإكرام والترحيب . فإذا أنس من أحدهم جفوة ، أو أحس إغضاء ، أخذ يعاتبه ، فإن اعتدل فيها وإلا هجاه . ولما يفلح في هذا الهجاء .

٢ - أسرة أبي تمام

لا يذكر الصولي من أسرة أبي تمام إلا اثنين : سهم ، وهو أخو أبي تمام ، ويقول عنه الصولي إنه كان يقول الشعر ، ويذكر من شعره :

ونازعته شيئاً إليه مبغضاً فلما رأى وجدى به صار يعشقه

فدعه ولا تحزن على فائز به فإنَّ جديداً الليالي ستخلقُه

وبين هذا الشعر وشعر أبي تمام أخوة تدرك في الروح ، وفي الفكرة ، وفي البديع .

ويقول الصولي عنه إنه جاء مرة إلى أبي تمام يستمичه ، فقال له : والله لا يفضل غنى شىء ، ولكنى أحتال لك . فكتب إلى يحيى بن عبد الله بقصيدة أولها :

إِحْدَى بَنَى بَكْرَ بْنَ عَبْدِ مَنَاهِ بَيْنَ الْكَثِيبِ الْفَرْدِ فَلَأْمَوَاهِ

ومنها :

سَهْمُ بْنُ أَوْسٍ فِي ضِمَانِكَ وَانْقَا أَنْ لَسْتَ بِالنَّاسِ وَلَا بِالسَّاهِي

أَجْزَلُ لَهُ الْحَظَّيْنِ مِنْكَ وَكُنْ لَهُ رَكْنَا عَلَى الْأَيَّامِ لَيْسَ بِوَاهِ

يُولَايَتَيْنِ : وَلَايَةِ مَشْهُورَةٍ فِي كُورَةٍ وَوَلَايَةِ بِالْجَاهِ الأبيات

ويذكر من أسرته أبنته تماماً . وقد عاش تمام بعده ، ورأينا فيما سبق شيئاً من أحاديثه عن أبيه ، ويقول إنه كان يقول الشعر ، ولكن شعره كان ضعيفاً . وينقل لنا أنه لما ولي محمد بن طاهر خراسان ، دخل الناس لتهنئته ، فكان فيهم تمام بن أبي تمام الطائى ، فأنشده :

هَناكَ رَبُّ النَّاسِ هَناكَ مَا مِنْ جَزِيلِ الْمَالِ أَعْطَاكَ

قَرَّتْ بِمَا أَعْطَيْتَ إِذَا الْحِجَا وَالبَاسِ وَالْإِنْعَامِ عَيْنَاكَ

أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِمَا نَلَّتْهُ وَأُورِقَ الْعُودُ لِنَجْوَكَ

فاستضعفت الجماعة شعره ، وقالوا : يا أمد ما بينه وبين أبيه ! فأغرى محمد بن طاهر به شاعراً ، فقال له شعراً فى آخره :

فَهاكَ إِن شئتَ بِهِ مِدْحَةً مِثْلَ الَّذِى أَعْطَيْتَ أَعْطَاكَ

فقال تمام : أعز الله الأمير ، إن الشعر بالشعر رباً ، فاجعل بينهما رخصاً من دراهم ، حتى يحل لى ولك . فضحك محمد وقال : إن لم يكن معه شعر أبيه ، فعه ظرف أبيه ، أعطوه ثلاثة آلاف درهم^(١) .

ولكن ديوان أبي تمام يتحدثنا عن غير هذين ، فيذكر لنا أن زوجته ماتت فرثاها ، فقال :

جُفُوفَ الْبَلَى أَسْرَعَتْ فِي الْغُصْنِ الرَّطْبِ وَخَطْبَ الرَّدَى وَالْمَوْتَ أَبْرَحْتَ مِنْ خَطْبِ

لَقَدْ شَرِقَتْ فِي الشَّرْقِ بِالْمَوْتِ غَادَةٌ تَعَوَّضْتُ مِنْهَا غُرْبَةَ الدَّارِ فِي الْغَرْبِ

وَالْبَسْنَى ثُوباً مِنَ الْحَزَنِ وَالْأَسَى هَلالٌ عَلَيْهِ نَسِجُ ثُوبٍ مِنَ الثَّرْبِ

أَقُولُ وَقَدْ قَالُوا أَسْتَرَّاحَ بِمَوْتِهَا مِنَ الْكَرْبِ رَوْحُ الْمَوْتِ شَرٌّ مِنَ الْكَرْبِ

لقد نزلت ضنكا من اللحد والثرى ولو كان رحب الذرع ما كان بالرحب
وكنت أرجى القرب وهي بعيدة فقد نُقلتُ بعدى عن البُعد والقرب
لها منزل تحت الثرى وعيدها لها منزل بين الجوانح والقلب

ولا نستطيع أن نعلم متى ماتت هذه الزوجة، ولكن في قوله :

لقد شِرت في الشرق بالموتِ غادة تموضتُ منها غربة الدار في الغرب

ما يدل على أنها ماتت في المشرق، في وقت كان هو فيه بالمغرب . وأبو تمام يدعو مصر والشام

بالمغرب، فيقول :

خلفت بالأفق الغربي لي سكا قد كان عيشي به حلوا بجلوان

فإذا صح هذا، كانت وفاة زوجته هذه بالمشرق في زمن كان هو فيه بمصر أو بالشام، ولكنه نزل الشام مرارا ، فلا نعرف في أى هذه المرات ماتت زوجته . وسنراه بعد في مصر يتحدث عن حب له بالإسكندرية ، ولاحظت هناك أنه قد تغيرت نعمة غزله ، بعد خروجه منها، وقصده إلى الرقة ، مما جعلني أرجح أنه كان تزوج وهو بمصر . ولا نعلم أكانت زوجته هذه التي يرثيها ، هي التي تزوجها في مصر ، أخذها ثم تركها في المشرق ، أم هي غيرها ، تزوجها من هناك ، وأغلب الظن أنها زوجة ثانية .



أما أبنائه فقد كان له غير تمام، وقد ماتوا في حياته، ففي ديوانه أنه قال يرثي ابنه له :

كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا
أمسى المرحى أبو علي مَوَسِّدا في الثرى دفيناً

فهو يسميه أبا علي، وأبو علي كنية من أسمه حسن .

وهو في مكان آخر يرثي ابنه محمدا رثاء أوله :

لا يُشَمِّت الأعداء بالموتِ أنسا سنُخلى لهم من عَرَصَةِ الموتِ مَوْرِدا
ومنها يقول :

تَبَاعَ في عام بَنِي وإخوتي فَأَصْبَحْتُ إنْ لم يُخْلِف الله مفردا

وهذا البيت يفيد أنه مات أبنائه وأخوته جميعا في عام واحد ، فأصبح مفردا ، ويقول :
 إن لم يخلفني الله ابنا فساظل كذلك . ولقد مضى أن أبنه تماما قد عاش بعد موته ، فكان هذه القطعة
 التي قيلت في رثاء أبنه محمد ، كانت قبل مولد أبنه تمام ، أما متى ولد أبنه ، فذلك مالا نعرفه . وكان
 أخاه سهما الذي سبق الحديث عنه ، قد مات أيضا قبل مولد تمام أبنه . ولأبي تمام في ديوانه رثاء
 في أخ له ، قد يكون سهما ، وقد يكون غيره ، قال فيه وقد حضر وفاته :

إني أظن البلى لو كان يفهمه	صدّ البلى عن بقايا وجهه الحسن
يا يومه لم تدع حسنا ولا أدبا	إلا حكمت به لتجد والكفين
لله مقتلته والموت يكسرهما	كأن أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرها وتعطفها	يد المنيّة عطف الريح للغصن
يا هول ما أبصرت عيني وما سمعت	أذني ، فلا أبصرت عيني ولا أذني
لم يبق من بدني جزء علمت به	إلا وقد حلّه جزء من الحزن
كان اللحاق به أهني وأحسن بي	من أن أعيش سقيم الروح والبدن

وفي الرثاء ما يوحى أنه كان صغير السن ؛ ولعله يتفق مع ما يفهم من حكاية أخيه سهم السابقة .

أما أبوه أوس فلا نعرف عنه شيئا ، إلا ما ذكرته في أول كلامي على حياة أبي تمام ، وليس في ديوان
 أبي تمام رثاء له . وذلك يدل على أنه لم يمت وأبو تمام يقول الشعر ، أو أنه ظل حيا حتى مات
 أبو تمام . والثانية أضعف ، فما سمعنا في شعر أبي تمام كله شيئا عن أبيه : وليس في كل ما هو معروف
 في حياة أبي تمام إشارة إليه .



هذه أسرة أبي تمام ، على ما يمكن أن نعرف . ولا شك في أن هناك آخرين ؛ فإننا لم نسمع شيئا
 عن أمه ، وليس في تاريخ الأشخاص عند القدماء ما يقصرون فيه تقصيرهم في هذه الناحية .
 وكان في بيت أبي تمام جوار وفتيان ؛ فقد رأينا كيف كان يرافقه حين دخل البصرة لثاني مرة
 أربعة وعشرون قتي .



ولكنه بعد هذا كان مرزاً في أهله ، مات أبنائه في حياته ، فلم يبق منهم إلا تمام ، وهو آخرهم
 على ما بدا في بيته السابق . ومات أبوه وهو صغير السن ، ويظهر أن أمه فارقتة أيضا طفلا . وإننا
 لتبين فجيعته فيهم ، وإحساسه فراقهم ، في أبيات يرثي بها جارية له :

أَلَمْ تَرَنِ خَلَيْتُ نَفْسِي وَشَانَهَا وَلَمْ أَحْفِلِ الدُّنْيَا وَلَا حَدَثَانَهَا
لَقَدْ خَوَّفَتْنِي النَّائِبَاتُ صُرُوفَهَا وَلَوْ أَمْنَتْنِي مَا قَبِلْتُ أَمَانَهَا

ولذلك خرج أبو تمام من الشام طفلاً ابن سبيل، هائماً على وجهه، ليس له من يرعاه، فألقته المقادير بمصر طفلاً، عليه أن يعمل ليعيش، وعلى غصنه الرطب الناعم، وشفثيه الطفلتين الباسمتين، أن تلقى الحياة القاسية عابسةً. فعمل، وصهرت أحداث دهره نفسه، فأخرجت لنا منه هذا الشاعر، الذي نقرأه فتهت نفوسنا بشعره.